

## عصر الخفاء في مصر الإسلامية

## الحاكم بأمر الله

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- ١ -

لبثت مصر منذ الفتح الإسلامي زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، تتوارثها الخلافة أينما حلت ؛ الخلافة العامة ، فالأموية ، فالعباسية . غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقية فالأندلس ، وكان ولايتها الأوائل ، ولاية لأفريقية ؛ وكانت أيضاً ، بموقعها الجغرافي ، وأهميتها الممرانية مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيماً للحركات الاستقلالية ؛ فقد ولها فاتحها عمرو بن العاص ولاية الثانية من قبل معاوية ، ولكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة ، وربما كان في اهتمام عمرو بالبقاء في ولاية مصر وسعيه لدى عثمان في تحقيق غايته ، ثم اقتطاعها بعد ذلك من معاوية نمناً لحلفه ومؤازرته ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم والسياسي البارح فرصة ملائمة لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة . ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ألقى في انتزاع مصر طمئة قوية يسدها لصدور الخلافة . ولما تآلق نجم بني العباس وسحقت الخلافة الأموية في موقعة الزاب ، فر مروان الثاني آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملكه وتراث أسرته ؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير في اتخاذ مصر بعد الشام مقبلاً للخلافة الأموية وقاعدة لاسترداد أراضيها الناهب لو كتب له الظفر على مطارديه

ولما ضعف سلطان الدولة العباسية وتراخت قبضتها في النواحي ، غدت مصر طمئة لطائفة من الحكام الأقوياء ، يحكمونها بأسم الخلافة ، ولكن ينشئون بها دولا مستقلة ، لا تكاد تربطها بالخلافة أية روابط سياسية أو إدارية . وكان ابن طولون أول هذا الثبت من الحكام الأقوياء ؛ قدم مصر والياً من قبل الخليفة

المعز سنة ٢٥٤ هـ ( ٨٦٨ م ) ، فلم يلبث أن استخلصها بمزمه وقوة نفسه ، وأنشأ بها لنفسه ولعقبه دولة باذخة ترامت حدودها إلى شمال الشام ؛ واستمرت مدى ربع قرن تنافس دولة الخلافة في السلطان والبهاء ؛ فلما آنتت الخلافة أن الأبحلال قد سرى إلى الدولة الفتية ، بعثت جيوشها إلى مصر غازية ، فاقتحمت مدينة القطائع عاصمة بني طولون ، وقضت على تلك الدولة الزاهرة ( ٢٩٢ هـ - ٩٠٤ م ) واستعادت الخلافة سلطانها على مصر عصر آخر ؛ بيد أن هذا السلطان لبث عرضة للانتقاص بين آونة وأخرى ، وحاول ولاية أقوياء مثل تكين وابن كيفلغ أن ينزعوها لأنفسهم في ظل الخلافة الاسمي ؛ حتى كانت ولاية محمد ابن طنج الأخشيد ، فاستطاع أن يقوم بمصر بمثل ما قام به ابن طولون ، وأن ينشئ بها دولة قوية مستقلة شملت الشام والحرمين ، واستمرت مدى ثلاثين عاماً ( ٣٢٧ - ٣٥٨ هـ )

كانت مصر تتمتع إذاً بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة ؛ وكان هذا المركز الخاص يجعلها قبلة مختارة لأطباع التغلبين وذوى النزعة الاستقلالية من الولاة والحكام ؛ ويرجع هذا المركز الممتاز إلى موقع مصر الجغرافي وثأبها عن مركز الخلافة العباسية ، ثم إلى اتساعها وبغناها ، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز مملكة مستقلة . ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة يوم استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم إلى إفريقية ، وأن ينشئوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة ، فاتجهوا بأنظارهم إلى مصر ؛ وما كاد ملكهم يستقر بأفريقية ، حتى بعث أبو عبيد الله المهدي أول خلفائهم جيوشه لافتتاح مصر ، فاستولت على برقة والاسكندرية ، ولكنها ارتدت أمام جيوش مصر وجيوش الخلافة ( ٣٠٢ هـ ) ؛ ثم غزت مصر ثانية ، واستولت على الاسكندرية والقيوم ، وأشرفت على عاصمة مصر ، ولكنها ارتدت إلى المغرب كرة أخرى بعد حروب طاحنة مع جيوش الخلافة ( ٣٠٧ هـ )

واستطاعت مصر أن تظهر مدى حين ، في ظل الدولة الأخشيدية ، بقسط من الاستقرار والقوة ، ولكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبذ مشروعها في افتتاح ذلك القطر الشاسع الفنى ، وبعث القائم بأمر الله ثاني الخلفاء الفاطميين جنده إلى

العباسية وريثة الدولة الأموية غاصبة للأمامة والخلافة اللتين اغتصمهما من قبل بنو أمية من علي وأبنائه، ويتخذون من هذا المبدأ دعامة للمكهم السياسي؛ فهم حسب دعواتهم أبناء فاطمة بنت الرسول، وورثة علي وعقبه الشرعيين في إمامة المسلمين وخلافتهم

وهنا تعرض نقطة دقيقة. من هم في الواقع أولئك الفاطميون؟ وهل يرجع أصلهم حقاً إلى فاطمة وعلي؟ هذه مسألة يحيط بها الخفاء والتموض، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجدل في العالم الإسلامي والرواية الإسلامية؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين في دعواتهم وفي شرعية إمامتهم؛ ويرجع نسبة إمامهم ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدي إلى الحسين بن علي وفاطمة. ولكن فريقاً آخر ينكر عليهم هذه الدعوى ويرى أنهم أدياء لا يمتون بأية صلة إلى علي، وأنهم إنما استروا بالتشيع والأمامة ليكسبوا عطف العالم الإسلامي. ويرجع هذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح بن ديسان البوني، وهو فقيه وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز يرجع إلى أصل مجوسى، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ؛ وقد كان يدعو سرّاً إلى مذهب فلسفى إلحادى لأنكار الأديان والنبوة صاغه في سبع دعوات سرية ينتهى الداخل فيها إلى انكار جميع العقائد والشرائع، ومنها استمدت دعوة القرامطة وبشت ثورتهم الاباحية المروعة؛ وكان يستتر بالتشيع ويدعو لأمام من آل البيت هو محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي؛ فلما توفى قام بدعوته السرية ولده أحمد، ومن بعد أحمد ولده الحسين فأخوه سعيد؛ واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص واستمر في نشر الدعوة وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته، وحاول الخليفة المكتفى بالله أن يقبض عليه وأن يجمد دعوته فقر إلى الغرب؛ وبشر له هناك دعائه وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة وتلقب بعبيد الله المهدي، وادعى أنه من آل البيت وانتحل إمامتهم. ويقدم الينا فريق آخر من المنكرين عن أصل عبيد الله رواية خلاصتها أن الحسين حفيد عبد الله بن ميمون هو الذى استقر بسلمية، وكانت له زوجة يهودية رائجة

مصر، فاستولوا على الاسكندرية مرة أخرى (٥٣٣٢هـ)؛ وكانت الخلافة الفاطمية تشمر أنها، وهي في مركزها النأتى بقفار المغرب تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى، أعنى مناوأة خصيمتها الدولة العباسية والعمل على تقويض دعائمها، وانتزاع زعامة الاسلام منها؛ وكانت مصر بتوسطها العالم الاسلامى، وبما اكتمل لها من أسباب الفنى والغصب، هي أصلح مركز لتحقيق هذه الغاية، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية أن تقيم ملكها السياسى على أسس قوية باذخة. فلما سرى الوهن إلى الدولة الأخشيدية، رأى الفاطميون فرصتهم قد سنحت، وجهاز المزمز لدين الله الفاطمى حملة كبيرة لافتتاح مصر بقيادة مولاة وقائده أبى الحسين جوهر الصقلى، فسار إلى مصر، واستولى عليها بعد معارك يسيرة في شعبان سنة ٣٥٨ (يوليه سنة ٩٦٠)، وفي مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم، وضع جوهر بأمر سيده المزمز خطط مدينة جديدة هي القاهرة، ثم اختط بها الجامع الأزهر بعد أشهر قلائل، وأعدت المدينة الجديدة لتكون منزل الخلافة الفاطمية، وقاعدة ملكها السياسى، كما أعد الجامع الجديد (الأزهر) ليكون منبراً للدعوة الفاطمية ورمزاً للأمامة الجديدة

\*\*\*

وهكذا تحقق مشروع الخلافة الفاطمية في افتتاح مصر؛ ومنذ السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) وهو تاريخ مقدم المزمز لدين الله إلى مصر، تغدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية، بدلاً من رقادة والمهدية، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلاً من المغرب. فلم تكن مصر للفاطميين غنماً سياسياً فقط، ولكنها غدت أيضاً معقلاً للدعوة الشيعية التى لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين، والتى بدأت ظفرها السياسى بإفتتاح المغرب؛ وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية التى انتشحت بها منذ قيامها بالمغرب، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التى نشبت بين الدولتين العباسية والفاطمية؛ فالفاطيون الذين يرجعون نسبهم إلى فاطمة وعلي يختصون بخلافتهم بالصبغة الشرعية، ويعتبرون الدولة

الحاكم بأمر الله ، وقد كان في تصرفاته وفي ظروف عصره ، ما يصلح مادة غزيرة لهذه المطاعن

— ٢ —

كانت مصر غنياً يسيراً للدولة الفاطمية الفتية ، ولكنها كانت أسطح جوهرة في تاجها ، وأعظم قطر في تلك الأباطورية الشاسعة التي أصبحت تسيطر عليها . ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشائخة في مصر مستهل عصرها الذهبي ، ومفتتح تلك العظمة وذئب البهاء والبذخ التي تترتها من حولها وطبعت بها حياة مصر العائمة عصرًا مديدًا ؛ وكانت مصر بمخصبها ونماؤها وفيض مواردها أعظم دعامة في إقامة هذا الصرح الباذخ الفخم ؛ فالعصر الفاطمي من أسطح عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعًا ؛ غير أن هذا العصر الذهبي الوهاج يمتد إلى كثير من التأمل ، فبينما نراه وضاءً واضحًا في بعض النواحي ، إذ نراه في البعض الآخر مظلمًا مظلمًا ، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب ، وإذا تتبدى لنا في هذا الصرح البراق ثغرات سود لا نستطيع أن نسر غورها أو نظفر بقرارتها ؛ ويشهد هذا الخفاء والغموض بالأخص كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية ، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها . على أننا سنحاول مع ذلك أن نستعرض من العصر الفاطمي فترة ربما كانت أشده خفاء وغموضًا ، وربما كانت مع ذلك أدعى إلى الاهتمام والدرس ، لما تعرضه لنا من حوادث وظروف وخواص مدهشة ، ولما تسفر عنه أحيانًا من الحقائق والأسرار الغريبة التي تلتقي شيئًا من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية ، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها

زيد بذلك عصر الحاكم بأمر الله أعرب وأغمض شخصية في تاريخ مصر الإسلامية

قدم العز لدين الله (تميم أبو محمد) إلى مصر بجيوشه وأمواله وعصبته في السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) بعد أن أنشئت العاصمة الجديدة (القاهرة) وأعدت لظروله ، واستتب النظام ، وتوطد الملك الجديد ، وتاق العز ملك

الحسن تزوجها بعد أن مات عنها زوجها الأول وهو يهودي ولها منه ولد فائق الذكاء والظرف ، فتبناه الحسين وعلمه وأدبه ولقنه أسرار الدعوة ، وتقدم إلى أصحابه بخدمته وطاعته ، وزعم أنه هو الإمام ، وهو الوصي ؛ وانتحل له نسبًا في ولد علي ، فكان هو عبيد الله المهدي . وهناك أيضًا من يقول إن عبيد الله هو ولد الحسين من زوجه اليهودية ؛ وهناك روايات وتفاصيل أخرى لا يتسع لها المقام<sup>(١)</sup>

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين ، والظن فيه وفي شرعية إمامتهم ومبادئهم يشغل فراغًا كبيرًا في الكتب المذهبية ؛ ونحن ممن يميل إلى الأخذ برواية المنكرين ، ولا نجد في تدليل المؤيدين وشروحيهم ما يلقى ضياءً مقنعًا ؛ وكان هذا الظن سلاحًا في يد الدولة العباسية تشهره للنيل من الفاطميين وتشويه سمعتهم في العالم الإسلامي ؛ وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية ؛ ففي سنة ٤٠٢ هـ في عهد الخليفة القادر بالله ، أصدر بلاط بغداد محضرًا رسميًا موقمًا عليه من كبار الفقهاء والقضاة ، وبعض زعماء الشيعة ، يتضمن الظن في نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنها ليسوا من آل البيت ، بل هم ديسانية ينتسبون إلى ميمون ابن ديسان ، بل إنهم كفار زنادقة ، وفاسق ملاحدة ، أباحوا الفروج ، وأحلوا الخمر ، وسبوا الأنبياء ، وأدعوا الربوبية . وفي سنة ٤٤٤ هـ ، كتب ببغداد محضر آخر يتضمن نفس المطاعن ؛ وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون إلى أصل يهودي أو مجوسي<sup>(٢)</sup> . ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد ، في عهد

(١) راجع في تفاصيل هذه المسألة ابن الأثير ج ٨ ، ٩ ، ١٢ ، وابن خلدون — المقدمة ص ١٧ — ١٩ والمقرئ (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٥٨ — ١٦٠ : ويؤيد هؤلاء الثلاثة نسبة الفاطميين إلى آل البيت ، ويبدئ ابن خلدون بالأخس حماسة ظاهرة في التدليل على ذلك وفي تفنيد حجج المنكرين ، ويعدو حذوه المقرئ وهو ممن ينتسبون إلى الفاطميين ؛ ويضرب ابن حجر حماسة ابن خلدون في تأييد نسب الفاطميين بغير آخر هو أنه لا يخبره عن آل البيت ثبت نسب الفاطميين إليهم ليكون ذلك معرفة لهم ، لما اشتهر عن الفاطميين من سوء العقيدة وكون بعضهم ينسب إلى الأجداد والزندقة (راجع رفع الأصر — مخطوط بدارالكتب — الورقة ١٦٠) وابن حجر من المنكرين لنسب الفاطميين ، ومنهم أيضًا ابن خلكان (راجع الوفيات ج ١ ص ٢٤٢)

(٢) ابن خلدون ج ٣ ص ٤٤٢ — وأبو الفدا ج ٢ ص ١٤٣ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥

# كيف نبعث الأدب

## وكيف نرواه

للأستاذ عبد العزيز البشري

تمة

ابن الربنا الصريح؟

لقد تعرف أن الأدب الحق لكل أمة هو الذي يشا كل حضارتها ، ويكافئ ثقافتها ، ويواتمها في جميع أساليبها ، ويترجم في صدق ويسر عن عواطفها ، وينفض ما يعتلج في الصدور من ألوان الشعور والأحاسيس . ولقد تعرف أن الأمم كما تختلف في ألوانها وفي ألسنتها وفي أخلاقها وعاداتها وغير أولئك ، فإنها تختلف كذلك في شعورها وفي أذواقها ومنازع عواطفها . ومهما تختلف في أفراد الأمة الواحدة هذه العواطف بالقوة والضعف ، والرقه والجفاء ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف ، فإنها ترجع إلى أصل واحد ، وتندرج تحت جنس واحد ، على تعبير أصحاب المنطق ، وذلك لأنها أثر من آثار الأرض ، والبيئة ، والعادة ، والتاريخ ، وما يتردد عليه النظر من صور الطبيعة ، وغير ذلك . كما أن لنوع الثقافة ومبلغ حظ الأمة منها أثره البعيد أو القريب في هذا الباب

ومهما يكن من شيء فإن لون العواطف الشائع في كل أمة ليس بالشيء الذي يستمر استمارة ، ولا بالذي تتناقله الأمم كما تتناقل العلوم وفنون الصناعات مثلاً . وكيف له بهذا وقد رأيت أن أبلغ عناصره مما لا يدرك بالكسب ولا بالاختيار ، إن هو إلا حكم الطبيعة وما من حكم الطبيعة مناص !

وأحسب أننا ، بعد التسليم بهذا ، في غير حاجة إلى أن نبعث الأدلة على أن ما يترجم عن عواطف قوم ويصور من حسهم الباطن قد لا يؤدي هذا لغيرهم ، وأن ما يستقيم من البيان لأذواق خلق من الناس لقد ينشز على أذواق ممشر آخرين . على أنه قد تشترك العاطفة والذوق كلاهما في معنى من المعاني ، وحيثئذ يصدق البيان

الشام كما تلقى ملك مصر على يد قائده جعفر بن فلاح ، ودعاه بنو حمدان في حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب الى شمال الشام ؛ ولكن فورة القرامطة كانت تهدد ملكه الجديد في مصر والشام ، وكان القرامطة قد زحفوا على مصر بالفعل في أوائل سنة ٣٦١ ، ونشبت بينهم وبين جيوش المزم بقيادة جوهر مارك هائلة على مقربة من الخندق (بجوار القاهرة) انتهت بهزيمتهم ، ولكنهم ارتدوا عندئذ نحو الشام فافتتحوها من يد ابن فلاح نائب المزم ، ثم زحفوا على مصر مرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المزم على مقربة من بلبس ، وهزمتهم هزيمة ساحقة (وأواخر سنة ٣٦٣ هـ) . وفي العام التالي خاضت الجيوش الفاطمية في الشام معارك شديدة ضد أفتكين المتغلب على دمشق وحلفائه البيزنطيين ؛ وفي الوقت نفسه غلبت الدعوة الفاطمية على الحجاز ودعى للخليفة الفاطمي على منابرها

وتوفى المزم في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) ، خلفه ولده العزيز بالله (أبو منصور زار) ، ولبت في الخلافة زهاء إحدى وعشرين سنة . وفي أول عهده زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر ، فلقيتهم العزيز في فلسطين وهزمتهم بعد حرب شديدة وأسر أفتكين (٣٦٨ هـ) وفي أيامه استردت دمشق ، وافتتحت الجيوش الفاطمية حمص وحماء وحلب وخاضت مع البيزنطيين معارك عديدة كان النصر حليفها فيها ؛ ودعى للعزيز في الموصل واليمن ، واتسع بذلك نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيماً . ثم توفى العزيز في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ (سبتمبر سنة ٩٩٦ م) في بلبس حيث كان يعتمر السير بمسأكره الى الشام<sup>(١)</sup> ؛ خلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو علي منصور ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه إليه في مرض موته ؛ وفي اليوم التالي سار الحاكم الى القاهرة ومعه جثة أبيه ، فدخلها في موكب نفخ نغم مؤسس مآ

للبحث بقية  
محمد عبد الله همام  
المهامي

التقل ممنوع

(١) هذه هي الرواية الراجحة وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) وابن خلكان (الوفيات ج ٢ ص ٢٠١) . وهناك رواية أخرى هي أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشام (راجع النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٢١)